من كتاب "قصور العرب":

غُمْدان

للأستاذ كاظم المظفر

(بقية ما نشر في العدد الماضي)

وقد وصف الشعراء غُمدانا وصفاً يكاد القارىء أن يتوهم لأول وهلة أنه بعيد عن الحقيقة، أو هو من نسج أخيلة الشعراء؛ ولكن عند التأمل والإمعان لا يرى فيه غرابة، ولاسيما وإن كثيراً من المؤرخين الباحثين (المستشرقين) الذين أخذوا على عاتقهم إحياء آثار العرب القديمة، شاهدوا بعض أنقاض تلك القصور العظيمة، وتحدثوا عن عظمة الأسلاف، وما كانوا عليه من قديم العصور من رقي وتقدم في مضمار الحضارة.

وفي غمدان وملوك اليمن يقول دعبل بن علي الخزاعي:(١)

منازل الحي من غمدان فالقصد ... فأرب قطفار الملك فالجند
أرى التبابع والأقيال من يمن ... أهل الجياد وأهل البيض والزرد
ما دخلوا قرية إلا وقد كتبوا ... بها كتاباً فلم يُدرس ولم يبد
بالقيروان وباب الصين قد زبروا ... وباب مرو وباب الهند والسند

وقال أبو الصلت يمدح ذا يزن:(٢)

أرسلتَ أسداً على سُبْع الكلاب فقد
أضحى شريدُهم في الأرض فلاّلا
فاشرب هنيئاً عليك التاج مرتفقاً ... في رأس غمدان داراً منك محلالا
قصر بناه أبوك القيل ذو شرح ... فعل يُرى أحد نال الذي نالا
منطق بالرغام للمستزاد له ... ترى على كل ركن منه تمثالا
تلك المكارم لا قَعبان من لبن ... شِيبا بماء فعادا بعدُ أبوالا

وأنشد لعصابة الجرجرائي:(٣)

الدار دارانِ إيوان وغُمدان ... والملك ملكان ساسان وقحطان

(١) معجم البلدان ج ٦ ص ٣٠٢

(٢) معجم البلدان ج ٦ ص ٣٠٢، ويروي المسعودي في مروجه ج ١ ص ٢٨٤ أن هذه الأبيات لأبي رمحة جد أمية بن أبي الصلت الثقفي وفي الإكليل ج ٨ ص ١٧ أنها تنسب لأمية بن أبي الصلت، ويقال إنها مصنوعة، وأنه لم يقل منها إلا ثلاثة أبيات أو أربعة.

(٣) كتاب البلدان الهمداني طبعة ليدن ص ٣٦٥

رد المعتزلة:

يبدو هنا الاعتراض وجيهاً في أول وهلة. ولكن المعتزلة وجدت فيه نقصاً وضعفاً كبيرين — يوجد أولا نقص منطقي في الاعتراض نفسه لأن الله في مذهب هشام بن الحكم جاهل بالأمور غير عالم بها وهو يعلمها عند وقوعها. وهذا تشبيه شنيع لله بخلقه يناقض كماله تعالى.

ثم هناك ضعف آخر في الاعتراض وهو إن كان الله لم يزل عالماً بالأشياء قادراً عليها فهذا لا يعني أن الأشياء المعلومة والمقدور عليها لم تزل موجودة منذ القدم — لأن الفاعل لابد من أن يكون قبل فعله عالماً بكيف يفعله وإلا لم يجز وقوع الفعل منه، كما أنه إذا لم يكن قادراً على فعله قبل أن يفعله لم يجز وقوع الفعل منه أبداً. ألا ترى أن من لم يحسن السباحة أو الكتابة لم يجز منه وقوعهما؛ فإذا تعلمهما وعلم كيف يكتب أو يسبح جاز وقوع الكتابة أو السباحة منه. وهذا حكم كل فاعل: لا بد من أن يكون قبل فعله عالماً به وإلا لم يجز وقوعه منه[1] — وبناءً على ذلك تقول المعتزلة إن الله كان ولا شيء معه، وأنه لم يزل يعلم أنه سيخلق الأجسام وأنها ستتحرك بعد خلقه أياما وتسكن. وإنه لم يزل يعلم أنها متحركة إذا خلقها الحركة وأنها ساكنة إذا خلقها السكون؛ وهو لنفسه لم يزل يعلم أن الجسم قبل حلول الحركة فيه يتحرك، وأنه في حال حلول الحركة فيه متحرك — فلا ماض ولا مستقبل في علمه تعالى لأن علمه هو ذاته وعلمه سابق للمعلومات. فتكون هكذا الأشياء أزلية في علم الله، محدثة في الزمان المعين والمحدث لها من الله. وحدوثها في الزمان لا يضيف ولا يبدل شيئاً في علم الله لأن هذا العلم سابق لها.

تبقى مسألة جواز وجود ما يعلمه الله أنه لم يوجد، ومسألة حرية الإنسان في فعل المعاصي مع معرفة الله الأزلية لما يفعله الإنسان. وهذه المسألة الأخيرة في غاية الدقة لأن المعتزلة تفخر بأنها ليست «أهل توحيد» فحسب بل أيضاً «أهل عدل» — وسنبحث إن شاء الله في مقالنا القادم هذه المسألة الخطيرة.

(البقية في العدد القادم)

أنيس نصري نادر
دكتور في الآداب والفلسفة

(١) الخياط: الانتصار ص ١٠٩.

وقال علقمة بن ذي يزن :(١)

أبعد غُمدان حين أصبح يسقى به الور والرياح
يا عين سلحين فاندبيه إذ هاض من أهله الجناح

وقال أيضاً :(٢)

لا تهلكن جزعاً في إثر من مانا فإنه لا يردُّ الدهر ما فانا
أبعد غمدان لا عين ولا أثر أم بعد بيتون بيتي الناس أبيانا

وقال أيضاً :(٣)

فذاك غُمدان عزتلاً(٤) كأنهُ جبلٌ منيفُ
يسكنهُ ماجدٌ أبيٌّ تُرغمُ قُدّامهُ الأنوفُ

وقال أيضاً :(٥)

هذاك غُمدان عُزتلاً بناؤهُ المجبُ العجيب
أعلاهُ مبهمة رخام(٦) عالٍ وأسفله جروب(٧)

وقال أيضاً :(٨)

وتكوّرت غُمدانُ من صرف الرّدى
من بعد مملكة وبعد تكبر
القيل من قحطان أبهم صخرها وعمادها والقطر خير الأقطر

وقال أيضاً :(٩)

قد كان حسان في ذؤابة غمدان قِرناً يعيش من رغدا

وقال أيضاً :(١٠)

ولم يخلد على الحدثان بانٍ بنى غمدان تهمه الهموم

وقال ابن أبي عاصية السُّلمي :(١١)

فهل ناظر من بطن غمدان مبصر فقا أحدرُمت للدى التراخيا
ولو أن داء اليأس بي فأعانني طبيب بأرواح العقيق شفانيا

(١) الاكليل ج ٨ ص ٦٠
(٢) الاكليل ج ٨ ص ٦٨
(٣) نفس المصدر ص ١٩
(٤) من أعزال الجبل : ارتفع فوق السراب .
(٥) الاكليل ج ٨ ص ١٩
(٦) المبهم : المغلق من الأبواب وذلك أنها رأيا فيما مضى أن باب غمدان أطبق سقف الغرف برخامة واحدة فكأنها أغلقت بهذه الرخامة .
(٧) جمع جربة على غير قياس وهي المزرعة والقراح من الأرض أو المصلحة لزرع أو غرس .
(٨) الاكليل ج ٨ ص ٢٠
(٩) الاكليل ج ٨ ص ٢١
(١٠) كذلك ص ٢٢
(١١) ذيل الأمالي والنوادر لأبي علي القالي ص ١٢٦

وقد ذكر الهمداني في بعض مخاطباته لأهل العراق ، وقد كانوا وصفوا بغداد في مخاطبتهم له ؛ حيث يقول :(١)

أرض تخيرها سام وأوطنها وأسّ غمدان فيها بعدما احتفرا

وقال الهمداني أيضاً :(٢)

ما زال سام يرود الأرض مطلباً للطيب غير بقاع الأرض يبنيها
حتى تبوّأ غمدانا وشيدها عشرين سقفاً يناغي النجم عاليها
فإن تكن جنة الفردوس عالية فوق السماء فغمدان يحاذيها

وقال ذوجدن الهمداني :(٣)

وهذا المال ينقد كل يوم لنزل الضيف أوصلة الحقوق
وغمدان الذي حدثت عنه بناه مشيداً في رأس نيق
بمرمرة وأعلاهُ رخام تحام لا ينيب بالشتوق
معاييح السليط يلحن فيه إذا يمسي كتوماض البروق
فأضحى بعد جدته وماداً وغيّر حسنه لعب الحريق

وقد يقال عن غمدان بمأرب وفيه يقول الهمداني :(٤)

من بعد غمدان المنيف وأهله وهو الشفاء لقلب من يتفكر
يسمو إلى كبد السماء مصمّداً عشرين سقفاً سمكها لا يقصر
ومن السحاب معصب بعمامة ومن الرُّخام منطق ومُؤزر
متلاصقاً بالقطر منه صخرة والجزع بين سروحه والمرمر
وبكل ركن رأس نسر طائر أو رأس ليث من نحاس يزأر
متضمناً في صدره قطارة(٥) لحساب أجزاء النهار تقطر
والطير واقفة عليه وفودها وسباعه قنواتها تتهدّر
ينبوع عين لا يصرّدُ شربها وبرأسه من فوق ذلك منظر
برخامة مبهومة فتى ترد أربابه مدخوله لم يسر

وقال الأعشى :(٦)

وأهل غُمدانُ حيثُ كانوا أجمع ما يجمع الخيار
قصيحتهم من الدّواهي تأمة عقبها الدّمار

(١) تاريخ اليمن الواسمي اليماني طبعة السلفية بالقاهرة ص ١١٠ والاكليل ج ٢ ص ١٢
(٢) الاكليل ج ٨ ص ١٣
(٣) العرب وأطوارهم ج ١ ص ١٠
(٤) الاكليل ج ٨ ص ١٧
(٥) المراد بالقطارة هنا الساعة المائية . وكان هرون الرشيد أهدى إلى شرلمان قطارة بديعة . ولا جرم أن مثالها كان على خلقة هذه القطارة اليمانية .
(٦) الاكليل ج ٨ ص ١٦